‘Yandoto Academic Journal of Arabic Language and Literature
ISSN: 2714-4712 (Print & Open Access)
https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

أ سلوب المديح عند المحامي آدم عثمان: دراسة وصفية

إعداد

د. أبوبكر، كبير أمين

Abstract

This study is an attempt to describe the characteristics of Bar Adam Usman‘s his style of thinking, his ideologies, his world view and his understanding and his personality in his Eulogies. The research was based on about twenty poems of the poet's work in Eulogy. The data was subjected to various critical methods of literary analyses and the conclusion was that the poet enjoys a style characterized by ease of expression and tenderness in the order, and the quality of composition. It was also discovered that the poet generates his meanings in his Eulogies from the occasions that are related to people whom he praises in the poems. He also employs the use a lot of Sufi terminology as well as other Islamic virtues in his compositions.

الخلاصة

هذه الدراسة محاولة لوصف مميزات أسلوب المحامي آدم عثمان في شعر المديح، ونمط تفكيره، وكيفية تركيزه للأفكار، ونظرته إلى الأشياء وتفسيره لها، وطبيعة انفعلاته، وذاتيته في شعر المديح. فقد تناول الباحث ما يقارب عشرين قصيدة من أعمال الشاعر في المديح بالدراسة، واستخلص إلى أن الشاعر يتمتع بأسلوب يتميز بالسهولة في التعبير والرقة في الترتيب، وجودة السبك. ويولّد معاني المديح من مناسبات القصائد ومن الفضائل الإسلامية. ويكثر من استعمال المصطلحات الصوفية، كما يجنح الى مدح المكان الذي يُقيم فيه الممدوح.

مفهوم الأسلوب

كل فرد يملك عالما من المعاني والأخيلة، وطريقة الصياغة والتعبير، ونمط التفكير والتنسيق. وهذا ما يسمى في العالم الأدبي بالأسلوب. ويمكن أن يعرّف الأسلوب بأنه هو الطريقة التي يتخذها الأديب في تنظيم أفكاره وتنسيق كلامه مما يميزه عن غيره. فالأسلوب عنصر أساسي في الأعمال الأدبية، وهو مرآة تُعكّس نمط التفكير عند الفنان، وإحساساته وانفعلاته، وتكشف شخصيته. كما يُظهر طبيعة الظروف المحيطة به كالبيئة والتجربة والثقافة[1]. فالأسلوب صورة خاصة لصاحبه، تبين طريقة تفكيره، وكيفية نظرته

إلى الأشياء وتفسيره لها، وطبيعة انفعلاته. فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب. ويبين الأسلوب الأفكار الكائنة في عقل صاحبه، كما يعبر عن المثيرات التي تحرك فكره.

فالأسلوب – على هذا الأساس – أداة تبرز بالضرورة، الانفعالات والأحاسيس والعواطف الإنسانية، وتبين فكر منشئه[2]. ومن هذا المنطلق يمكن أن يتخذ الأسلوب معيارا يفصّل بين إنتاجات أديب وإنتاجات أديب آخر، أو إنتاجات عصر وعصر آخر، أو مدرسة أدبية وأخرى، وهكذا. ولذلك اعتبر النقادُ الأسلوب بمثابة لوحة كاشفة لمخبآت شخصية الإنسان ما ظهر منها في الخطاب وما بطن، ما صُرّح وما ضُمِن.

وفي الجملة، إن الأسلوب عنصر هام في الدراسات الفنية، يساعد الدارس علي فهم طبيعة الفنان ومزاجه وسائر الظروف المحيطة به، وتمييز أعماله عن غيرها.

مفهوم المديح

يمكن أن يُعرّف المديح بأنه: "هو الثناء على ذي شأن بما يستحسن من الأخلاق النفيسة كرجاحة العقل والعدل والعفة والشجاعة"[3]. فهو بذلك نوع من الشعر يقوم على تعداد المحاسن. ومن الظاهر أن المديح كان ظاهرة فطرية في الإنسان[4]، وأنه كان نوعا شائعا في آداب جميع الأمم منذ زمن الإنسان البدائي[5]. وكان يُعَدُّ في الشعر العربي التقليدي من أهم الأغراض منذ الجاهلية إلى العصر الراهن[6].

ويحتمل أن يكون المديح جزءا من الفخر أو متفرعا عنه كما يرى قدامة بن جعفر[7] بأن الفخر مدح النفس، وكان متقدما على المديح بالنسبة إلى العرب. فقد كان مديحهم قبل أن تضعف أعصاب البداوة كله فخرا، ولما وهنت أعصاب البداوة، ومس العربَ الترفُ، وجعلوا يبتغون المنالة، حوّلوا شيئا من فخرهم إلى المديح[8].

والدارس لتراث الأدب النيجيري باللغة العربية يدرك ضرورة أن المديح عندهم قد تَشَكَّلَ بشكل تقليدي[9]. وذلك لأن الشعراء العلماء قد قرؤوا دواوين الشعراء القدامى، وحاولوا تقليدهم ومحاكاة أسلوبهم، إلا أنـهم لم يكونوا متكسّبين ولا محترفين، خلافا لبعض الشعراء من العرب القدامى الذين اشتهروا بالتكسب بالشعر، والذين كانت إنتاجاتُهم متوفرة في بلاد نيجيريا، ونموذجا لشعرائها.

والمعروف أن فن المديح بات من أشهر فنون الشعر العربي التي طرق بابَها كثيرٌ من الشعراء منذ تطور الأدب العربي النيجيري[10]، بل صار من الأغراض الأساسية في الشعر العربي النيجيري، يستعمله الشعراء للإشادة بدور شيوخهم وعلمائهم الإيجابي في تطوير عجلة الثقافة العربية والإسلامية. فينظم أولئك الشعراء على نهج شعراء العصر الجاهلي وصدر الإسلام، كزهير، الذي لا يـمدح أحدا إلا لأجل ما يتصف به من الخصال الحميدة[11].

وقد نظم المحامي آدم عثمان قصائد متعددة في أغراض مختلفة، وأدرك الباحث من خلال دراسة أعماله الأدبية، أن فن المديح يُمثّل غرضا هاماً وبارزًا من أغراض شعر هذا المحامي. وأنه يمكن ان يعّد من بين الشعراء العلماء الذين ساهموا في تكوين مادة شعر المديح في هذه البلاد. فقد ساهم-هو الآخر- بنصيب وافر من القصائد التي نظمها في فن المديح، والتى مدح بها شيوخه وغيرهم من السادات وأصحاب الجاه وغيرهم ممن استحق أن يمدح لسبب أو آخر حسب رأي الشاعر.

بطاقة تعريف بالشاعر المحامي آدم عثمان

ولد الشاعر المحامي آدم عثمان سنة 1957م في قرية قريبة من مدينة غُمْبِي Gombe تدعى بُولَ جَنْغِرَاوُوْ Bula Jangirawo. وعاش الشاعر المحامي آدم عثمان بين نخبة من العلماء آباء وأجدادا، وترعرع في أسرة دينية وعلمية خالصة. فدرس عند أبيه علوما جمّة، فهو الذي علّمه القرآن ومبادئ الفقه المالكي واللغة من خلال الكتب المتداولة في أيدي العلماء في ذلك الحين والمكان[12].

وكان من حسن حظ الشاعر المحامي آدم عثمان أن نشأ في بيئة علمية ودينية، تُقَدِّر العلم والدين. فقد أتاح له ذلك فرصة ليبدأ طلبه للعلم مبكرا، ومنذ أن كان يافعا. فبعد أن تعلم عند أبيه أساسيات الفنون الإسلامية كالقرآن ومبادئ الفقه المالكي، أخذ الشاعر يتعلم ويدرس عند نخبة من العلماء علومَ الفقه حتى حصل منه على نصيب وافر. فقد درس مذهب المالكية بعمق وأتقن فنونه عند أبيه وغيره من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم في غُمْبِي وما جاورها من القرى والمدن.

ثم أرسله والده إلى مدينة كَانُوْا Kano سنة 1970م، ليواصل سيره في تحصيل العلم والثقافة الإسلامية. فقضى في كَانُوْا نحو عقد من الزمن، تلقى خلاله علوما كثيرة من مجالس علمائها المختلفين ومعاهدهم. فقد درس عامة كتب فقه المذهب المالكي المقررة في المعاهد التقليدية وكتب اللغة والنحو وغير ذلك، كما درس دواوين الشعراء القدامى.

وكان الشاعر المحامي آدم عثمان مشتاقا إلى الدراسة النظامية والتربية الغربية التي بدأت تشق ضوء شعلتها في ذلك الحين. فحمله ذلك على تسجيل نفسه في مدرسة مسائية ابتدائية لمحو الأمية لما كان في كَانُوْا، واسم المدرسة مَطَاتِي Madate وذلك سنة 1972م. ومكث في هذه المدرسة أربع سنوات، وتعلم خلالها مبادئ القراءة بلغتي الإنجليزية والهَوْسَا Hausa والحساب[13]. ثم التحق بمدرسة العلوم العربية School for Arabic Studies المشهورة بكَانُوْا ونهل من فياض علومها وتخّرج فيها سنة 1978م.

وفي سنة 1980م وجد الشاعر المحامي آدم عثمان قبولا في جامعة عثمان بن فودي صُكُتُو Sokoto، وابتدأ دراسته الإعدادية. ثم تخصص في الحقوق والشريعة وتخرّج في الجامعة سنة 1986م.

ثم سافر إلى مدينة لاَجُوسْ Lagos حيث مدرسة نيجيريا للحقوق Nigerian Law School، وسجّل ليصبح محاميا ويكتسب عضويته في منظمة المحامين النيجيرية Nigerian Bar Association وذلك سنة 1987م.

ومن ثم رجع إلى بَوْتَشِي Bauchi وواصل عمله مع وزارة العدل التي كان من موظفيها منذ 1985م. وقد عمل مع الوزارة لمدة عشر سنين تنقل خلالها بين المحاكم الحكومية والمناصب، حتى انتهى إلى محكمة الشريعة الاستئنافية Shari'a Court of Appeal حيث عمل كنائب المسجل العالي.

ولما استقال عن الوظيفة أسس غرفة المحامة وسماها بـــــ Miyatti Allah Chambers في شارع رَنْ Ran Road بمدينة بَوْتَشِي. ولا يزال يرأس هذه الغرفة التي تضم طائفة من المحامين الممارسين.

ومع عودة الديمقراطية في سنة 1999م خاض الأديب الشاعر المحامي آدم عثمان في الحركات السياسية، حيث ترشّح ليُنْتخب كمُمَثِّل في بَرْلِمَان ولاية غُمْبِي ونجح ليس فقط في الحصول على مقعد النيابة، بل نجح أيضا في الحصول على منصب رئيس المجلس لمدة ما بين 1999م إلى 2003م. وتمّ تعينه بعد ذلك رئيسا لحكومة أَكُّو Akko المحلية على سبيل الوكالة قبل أن يتمّ الانتخاب. وعاد إلى غرفة محامة Miyatti Allah Chambers بعد ذلك ليستمر في ممارسة صناعة المحامة، والتي لا يزال يمارسها إلى

جانب الزراعة[14]. وتزوج الرجل مبكرا في سنة 1982م. ثم تزوّج زوجة ثانية سنة 1993م. وله إلى الآن ستة أولاد.

ومن هذه التفاصيل يظهر للباحث أن الشاعر اكتسب ثقافة واسعة متعددة الأطراف، إذ اكتسب الثقافة الإسلامية في بداية جولته في هذه الحياة، وثنّى بالثقافة الغربية إلى جانب الثقافة التي اكتسبها في صناعة المحامة وفي الحركات السياسية التي خاضها. وكان إلى جانب كل ذلك، محبّا للقراءة ومولعا بالمطالعة، كما كان مغرما بكتب الأدب الإنجليزي والروايات والصحف التي كان يقرءها دوما. وكان يتابع الحركات السياسية الدولية والأزمات العصرية، والصراع بين الثقافات وسائر القضايا الدولية عن طريق قراءة المجلات المستوردة ومشاهدة شاشات القنوات الفضائية الدولية. كما سافر إلى عديد من الدول في أُورُبّا أيام أن كان رئيسا على برلمان ولاية غُمْبِي الجديدة ومكّنه كل ذلك ثقافة واسعة ومزدوجة، كما أكسبه تجربة عميقة في الحياة وأطرافها المتعددة. وظهرت آثار هذه التجربات في إنتاجاته الأدبية واضحة وجليّة.

دراسة وصفية لأسلوب المديح عند المحامي آدم عثمان

كان أسلوب المحامي آدم عثمان في المديح يتميز بالسهولة في التعبير والرقة في الترتيب. فهو يعبر عن نفسه بعبارات في غاية السهولة مع جودة السبك. وهذا ليس غريبا إذ قد يكون الشعر جيدا وكلماته في منتهى السهولة، وهو كذلك خال من أنواع البديع[15].

وقد كان المحامي آدم عثمان يتفنن في استعمال اللغة، إذ يكتب باللغة العربية الفصحى. ولكنه يُدْخِل في لغته أحيانا كلمات ليست من أصل عربي، فيعرّبها، ويراعي تجانسها مع الموقف. فحين مدح شيخه الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي في قصيدة همزية من البحر الكامل في ثلاثة وستين بيتا سماها "ترحيب الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي لرجوعه بعد الفراغ من تفسير القرآن". قال[16]:

ولِذا تَكَادَنَ وَسْطَ وفد جامع بين الفقيه وزمرة الحفظـاء

فكلمة "تَكَادَنَ" هنا فعل بمعنى استوطن كَادُونَا كما يقال تمصّر أو تشآم، إذا دخل مصر أو الشام. فانظر كيف تمكّن ليس من وضع الكلمة في شعره فقط، بل في إعطائها صفة من صفات الكلمات العربية وهي الاشتقاق وقبول الزيادة الصرفية.

وقال في موضع آخر يمدح الشيخ نفسه في قصيدة دالية من البحر البسيط، وعدد أبياتها خمسة وثلاثون بيتا. نظمها الشاعر بعنوان "ترحيب فضيلة الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي لرجوعه من تفسير القرآن لمناسبة شهر رمضان المبارك المنعقد في كَدُونَا". قال فيها[17]:

تاج الفؤاد لكُوْبِيّين صُنْتُ لكم عهدا وكانت قلامي ضمن إشهادي

فكلمة "كُوبِيّين" نسبة إلى كُوبي Kobi وهي محلة سكنية معروفة في مدينة بَوْتَشِي، وكان الشيخ الممدووح يسكن بها. فاستطاع أن ينسب إليها ويجعلها متناسقة بمحلها من البيت ويُكسيها ثوب الإعراب، فيجرها بالإضافة، وعلامة الجر الياء باعتبارها جمع مذكر سالم!.

وقد لاحظ الباحث أن من مميزات فن المديح عند المحامي آدم عثمان توليد معاني المديح من مناسبات القصائد. فإنه إذا أراد أن يمدح أحدا خلق من المناسبة معنى يمدحه بها. فقد كتب قصيدة على سبيل المثال ليذم بها الهندي سلمان رشدي بمناسبة كتابه "آيات الشيطان" الذي نال فيه رشدي من كرامة الرسول ﷺ، فبدأها الشاعر بمدح الرسول ﷺ قبل أن يجنح إلى غرضه الأساسي للقصيدة. فبدأها بقوله[18]:

بنوا هاشم نالوا ذرى المجد والهدى بيُمْنِ الذي قِدْمًا يسمى محمدا

وطفق يـمدح الرسول ﷺ وأصحابه وأزواجه قبل الخوض في ذم رشدي. وكأنه بذلك يشير إلى أن الرسول ﷺ لا تنفك فضائله وكراماته عنه مهما حاول شيطان أو زنديق أن ينال منها. ولم يلتفت إلى سلمان رشدي إلا بعد أكثر من عشرة بيتا، وذلك يمثل ربع القصيدة تقريبا، فبدأ الهجاء بقوله[19]:

ألا! إن سلمان بن رشدي قد ارتدى زيول العدى ضد الرسول محمدا

وانتهى منه بقوله قبل بيتين من نهاية القصيدة:

فليتك يا سلمان لو كنت جاهلا وليتك مـا سببت قط مـحمدا

مسيلمة الكذاب يكفيـك عبـرة لقد لاق حتفا حين كذب أحمدا

وهكذا فعل حين ذم من سماهم بـ"شبان البُرَاذَي" Brothers ونصحهم ليكفّوا عن سب الصحابة والعلماء. فبدأ القصيدة بعد الحمد لله والثناء عليه بذكر فضائل الصحابة، وكرامة العلماء وفضلهم، قبل أن ينطلق إلى هجاء "شبان البَرَاذَي". ومن هذا القبيل مدحه لرئيس نيجيريا السابق اللواء إبراهيم بَابَنْغِدَا Gen. Ibrahim Babangida في ثنايا هجائه للضابط الذي ترأس محاولة انقلاب فاشلة ضد السابق، وهو الضابط غِدِيُونْ أُوركَر Col. Gideon Orkar فقد مدح الشاعر اللواء بَابَنْغِدَا في القصيده مشيرا إلى أنه لا يزال محترما رغم التهم التى وجهها الانقلابيون ضده. والقصيدة تائية من البحر الوافر تحتوي على ثلاثة ومائة بيتا. يقول في القصيدة[20]:

إذا اجتمع الرجال لسوف تدري أعزهم ليوم الواقعـــات

وإبراهيم كان أعز قـــــــــــــــدرا وإذ أنتم صغار راضعـــات

وإبراهيم كان أعـــــــــــــــزّ قدمـــا وإذ أنتم كلاب نابـــحات

وآتاه الإله بحكم شعـــــــــــــب وأعدل في المسائل مبهمـات

وهكذا تجده يولد معاني المديح بشكل يوحي إلى ما يقوله لسان حاله بأن ممدوحه صاحب فضل لا يشطبه ما قال فيه من قال.

وأحيانا يتطرق إلى مدح المكان الذي يُقيم فيه الممدوح كما، فعل في مديحه للحاج بَابَ لِيمَنْ Alhaji Usman Baba Liman في قصيدة نونية من البحر الكامل، تحتوي على ثلاثة وثلاثين بيتا، وسماها "كلمة الشكر لهبة الكتاب للقاضي ألْحَاجِ عثمان بَابَ لِيمَنْ" حيث بدأ يـمدح مدينة غُمْبِي أَبَّا Gombe Abba؛ مسكن الممدوح. فقال[21]:

تلك الحدائق والجنان علمتهـا في غُمْبِي أَبّا مدينة العرفـان

قد زارها بحر يـموج بـمـــــائه يأتي بكل نعائـم الحيتـــان

أم المدائن ماذوا عمرانـــها تنمو بكل دقيقة و ثـــوان

تلك المدينة أصل كل فضيلة والأهل مـنها جُرْثُم الإحسان

وهكذا جعل يـمدح مدينة غُمْبِي أَبَّا وأهلها قبل أن يصل إلى هدفه الأساسي من القصيدة.

وكان الشاعر المحامي آدم عثمان يُولد كذلك المعاني في مديحه من اسم الممدوح وصناعته ومن حرفته. فحين نظم قصيدة همزية من البحر الكامل في ثلاثة وستين بيتا بعنوان "ترحيب الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي لرجوعه بعد الفراغ من تفسير القرآن". مدح شيخه الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي فيها بقوله[22]:

شيخ الشيوخ وكان شيخي طاهرا اسما وفعلا مورد الحكمـاء

فاسم الشيخ "طاهر" وهو يقول إن شيخه طاهر اسما وفعلا، أي اسمه طاهر وفعله طاهر كذلك.

وكان إذا مدح عالما وصفه بالعمل بالقرآن وإنشاد العلم والعفة فيقول في شيخه إنه عالم وتقي وزاهد وعامل بالكتاب والسنة... وهكذا. ومثال ذلك قوله وهو يمدح الشيخ طاهر عثمان بوتشي[23]:

لقد ارتدى ثوب التقى وكرامة قد كان سيد حشدة الكرماء

زينت قلبك بالكتاب وحانـه سنن الرسول وحكمة العلماء

وقال فيه أيضا في قصيدة ميمية من البحر البسيط، وعدد أبياتها مائة.[24]:

وصوب علمك أروانا وطهرنا ومن يطهّر وهو الطاهر السلم

إني أجالس أهل العلم و الهمم لعل من فضلهم تعلوا بيَ الهمم

وإذا مدح قاضيا وصفه بالعدل، كما قال في القاضي بَابَ لِيمَنْ[25]:

وبـمقتضى وحي الإله لقد قضى هو عادل من فوده الفينــان

ومثال ذلك ما ورد في "قصيدة التهنئة لمناسبة تولية منصب القضاء" وهي يائية من البحر الطويل في ثلاثة وعشرين بيتا، نظمها ليهنئ زميله في وزارة العدل؛ القاضي يحيى بن أحمد حين ولي القضاء في إحدى المحاكم الشرعية. فمدحه الشاعر فيها بقوله[26]:

لقد شهد الأقوام أنـك عـادل وعدلك قد أنبى السيوف العواليا

لقد ارتديت العدل والكل عارف رداء التقى خير وإن كان بـاليا

وكان يُولد المعاني أيضا من الفضائل الإسلامية مستندا إلى الكتاب والسنة في ذلك. فحين نظم داليته التي هجا بها سلمان رشدي بـموجب كتابه آيات الشيطان، مدح فيها الرسول ﷺ بقوله[27]:

وأكرمه المولى بوحي مفصـل إلى الخلق طرا مرسلا ثم مرشدا

ليخرج من ظلم إلى النور أمـة إذا آمنت تحظى شفاعته غدا

وصلى عليه الله والآي أرشدت ملائكة صلت عليه تعبّـدا

وكان حبيب الله قد كان أسـوة لمن كان يرجوا الله دارا مؤبدا

وهكذا فعل في رائيته الموجهة إلى لجان الذكر التي قدمت زائرة شيخه الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي في مدينة بَوْتَشِي وهي من البحر الطويل، تحتوي على واحد وخمسين بيتا. ويقول فيها المحامي[28]:

ويجمعهم حب الإله وذكـره فإنهم أهل التقى نعم بالزمــر

ولا يلههم بيع كذاك تـجارة إذا ما دعوا للذكر قاموا إلى السحر

فما يكاد المرء يقرأ هذه الأبيات حتى يتذكر عديدا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي أخذ منها الشاعر هذه المعاني. كقوله تعالى في سورة الأحزاب "إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنو صلوا عليه وسلموا تسليما". وقوله في سورة النور "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر وإقام الصلاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار" ونظائرها.

ومن مميزات أسلوب الشاعر المحامي آدم عثمان في شعر المديح افتتاحه القصائد بما يناسب غرضه منها، كقوله[29]:

بالحمد والشكر كل الخير تكتسب بالذكر والفكر عند الله نقتــرب

وذلك في مطلع قصيدة بائية من البحر البسيط نظمها لمناسبة زيارة قام بها الشيخ علي بن سِيسِي السنْغالي إلى بَوْتَشِي. فبدأها بالإشادة لشأن الذكر إشعارا إلى انتماء الممدوح إلى التصوف.

وقوله[30]:

حمدت الله من جعل المقامــا مصلى من أتى البيت الحرامــا

وذلك في بداية قصيدة في ميمية من البحر الوافر تحتوي على أربعة وأربعين بيتا، نظمها لتوديع الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي الذي ينوي السفر إلى الحج. فبدأها بذكر الحج.

ونظير هذا قوله في مطلع القصيدة التي نظمها فور قدوم الشيخ عائدا من الحج[31]:

هو الرحمن من فرض الذهابــا إلى البيت الذي أضحى مثابــا

ومثال آخر قوله في مطلع "كلمة الشكر لإدارة شئون الحج لولاية بَوْتَشِي"[32]. وهي ميمية من البحر البسيط تحتوي على ثلاثة وثلاثين بيتا، نظمها ليشكر إدارة الحاج التابعة لولاية بَوْتَشِي بمناسبة هدية كرسي السفر إلى الحج التي قدمتها إليه الإدارة:

لله نقصد نحو الحل والحــرم سعيا إلى طلب الغفران والكرم

ومن هذا المنطلق لاحظ الباحث أن الصفات التي يرددها الشاعر في المديح ويعتبرها صفات الكرم لا تتعدى حدود الصفات الدينية كالصدق والأمانة والتقوى والعلم والجهاد والوفاء وحفظ القرآن والفقه والبصيرة والذكاء والعدل. فقد كانت هذه الصفات وما في معانيها أو شبهها هي التي يرددها الشاعر كلما مدح رجلا. وهذا ناشئ عن البيئة التي كان يعيشها، إذ كانت بيئته إسلامية خالصة، يغلب علي الناس فيها تقدير أهل العلم والفضل والتقوى وأشباهها. لأنها هي الصفات التي يعتبرها المجتمع بمثابة الفضائل ويقدرها بفضل الدين، ويعتقد أن صاحبها يستحق المديح.

وكان يكثر من المقارنة بين الممدوح وخصومه أو أقرانه. فيقول في عينية من البحر الكامل، تحتوي علي ثلاثة وسبعين بيتا مادحا شيخه الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي[33]:

ومتى أقيسك بالنظائر بعد مـا علماء عصرك من شبابك تبرع؟

وإذا المسائل أعجزت وتفاقمت تدلى بأجوبة وقولك مصـدع

* * * * * * * * * * * *

إني أماثلك الذين تقاصــروا إذ هم نيام أنت لا تتــهجع

وقال في "قصيدة ترحيب صاحب الفضيلة الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي لرجوعه من كَادُونَا بعد اختتام برنامجه السنوي لتفسير القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك للعام 1412هـ"[34] وهي نونية من البحر الكامل تحتوي على ستة وأربعين بيتا.:

ولقد سبقت إلى المكارم والعلى لم لا ترد الخصم أنت لسين

وإذ الجموع تـجمّعت وتكاثرت أنت الخطيب وإن أُجزت تبين

والله قد أعطاك فضلا باهـرا يعلو ويرغم بالعدى ويهيـن

والله فضلك الجميـع وفُقْتَهـم أنت اللئالي إن غيرك طيـن

وفي "قصيدة تهنئة السيد الفاضل يحيى بن أحمد لمناسبة تنصيبه قاضي قضاة ولاية بَوْتَشِي" وهي دالية من البحر البسيط، وعدد أبياتها ثمان وثلاثين بيتا، يقول مادحا القاضي يحيى بن أحمد[35]:

ألست أعدلهم حلما وأحسنهم خلقا وأعلمهم منهاج إرشاد

ألست أتقاهم قلبا وألـينهـم جنبا ومن خير أهل الله زهاد

ألست أوفرهم صبرا و أحكمهم قولا وأسوة أهل الله سجاد

وقد كان يلتقط معاني المديح أيضا من شرف الآباء، فيمدح الرجل بآبائه، ويكون في ذلك مخالفا لنظرية قدامة بن جعفر في المديح[36] التي تعيب المديح إذا كان بشرف الآباء. فقد نظم "قصيدة توديع فضيلة الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي لسفره إلى الحج" وهي بائية من البحر الكامل، ومدح شيخه الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي فيها بقوله[37]:

عثمان أصلك إن أصلك طيب إن الرياض نباتها لرطيـب

وقال فيه أيضا في قصيدة عينية من البحر الكامل، تحتوي علي ثلاثة وسبعين بيتا. نظمها ليرحب بشيخه حين عاد من الحج[38]:

وطلعت من أصل عزيز عـزه من أم فضل كل فضل ترضـع

أفلا ترى الأشجار إن تك أرضها خصبا جناها دائما لا يقطـع

عثمان مثل سميّه في حفظـه وسخائه هو في الرجال الأشجع

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر المحامي آدم عثمان يستغل معرفته بتاريخ الإسلام فيخلق من الأحداث والحقائق التاريخية معاني للمديح أو غيره. وهذا ظاهر من تشبيهه عثمان والد شيخه بالخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه في الحفظ والسخاء. وكما فعل من وصفه للحساد ضد شيخه، الذين شبههم بمسيلمة الكذاب، وذلك في "قصيدة ترحيب فضيلة الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي لقدومه من كَادُونَا عقب اختتام جلسة تفسير القرآن الكريم لمناسبة شهر رمضان المبارك للعام 1412هـ" وهي ميمية من البحر الكامل، تحتوي على ستة وثلاثين بيتا، فقال[39]:

ما يبتغي الحساد منك فإنـهم يئسوا كما يئس الكذوب مسيلما

كما كان يكثر من ذم خصوم ممدوحه، فقلما يمدح رجلا إلا ويهجوا خصوم ذلك الممدوح. فقد كان كثيرا ما إذا مدح شيخه هجا شيوخ الطوائف الدينية الأخرى والتي بدورها تتشاجر أو تخالف شيخه في

العقيدة أو المنهج أو غير ذلك. ومثال ذلك قوله في ثنايا مدح الشيخ طاهر عثمان من قصيدة نظمها بمناسبة ترحيب الشيخ لرجوعه من كَادُونَا بعد اختتام تفسير القرآن لرمضان سنة 1412هـ. فقال[40]:

وأقمت حدا بالإزالـة قـاسطا رُجمت وبادت والحنيفة دين

إن يحسدوك فإن حسبك ربنا ربـي برد الحاسيدين قمين

لعن الحسود فإن حاسد نعمـة تنمو فيشقى وهو بعد حزين

عضوا الأصابع إن رأوك وكلهم جم الضحايا منكر وضغين

وأما بالنسبة إلى الشكل فمن الواضح أن الشاعر محافظ، وكان يستخدم الأوزان الخليلية التقليدية، فيكثر من استخدام البحور السائدة في الشعر العربي القديم كالبحر الكامل والطويل والبسيط والوافر وغيرها من الأوزان دون أي تتغيير في أشكالها وقواعدها المعروفة كما هو ظاهر من قصائده. كما كان يستخدم أسلوب التصريع في مطالع قصائده حيث يجعل حرف الروي مطابقا للحرف الأخير في صدر البيت الأول[41]. وكل هذه من المميزات التي توحي بأنه محافظ وتقليدي في شكل أعماله الأدبية، وهذا مع أنه قد اكتسب من الثقافة الحديثة حظّا وافرا. ولعل هذا يرجع إلى كونه قد تنحل من الأدب العربي القديم الشيء الكثير في بداية جولته العلمية، وقبل اتصاله بالثقافة الغربية كما مر في ترجمته. أو يكون راجعا-في أقل تقدير- إلى الوضع الذي يعيشه الشاعر في مجتمع لا يزال يكره التجدد في كل شيئ تقريبا، فمن الطبيعي أن تجد أفراد مجتمع كهذا يحاولون الابتعاد عن الجديد الذي قد يسبب لهم الذم من الناس.

ومن مصادر معانيه في شعر المديح النـزعة الصوفية التي ينتمي إليها الشاعرويدين بها ويعرفها حق المعرفة. فقد تـجده يقول في شيخه الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي وذلك في همزية من البحر الكامل في ثلاثة وستين بيتا نظمها ليرحب بشيخه القادم من كَدُونَا بعد الفراغ من تفسير القرآن بـمناسبة شهر رمضان. وقال[42]:

وسريت كلك في الكتاب ولا أرى غير الكتاب وذاك كل فنـاء

ومثال آخر ما في البائية التي سماها "قصيدة توديع فضيلة الشيخ طاهر عثمان بَوْتَشِي لسفره إلى الحج" وهي من البحر الكامل، تحتوي على ستة وأربعين بيتا. فقد قال فيها[43]:

كُشِف النقابُ لنا بأنك عـازم نـحو العتيق وأنت فيه رهيب

وهكذا فعل لما نظم قصيدة عينية من البحر الكامل في ثلاثة وسبعين بيتا ليرحب بالشيخ طاهر عثمان بوتشي حين قدم من الحج. فقال في ثناياها[44]:

والله أعطاك المفاتح هرولـوا يفتح لكم، وهو الممر الأوسع

فالفناء والكشف والفتح من المصطلحات المعروفة عند الصوفية.

الخاتـمة

ولعل فيما مر من الحديث ما يعطي ضوءً لا بأس به حول أسلوب الشاعر المحامي آدم عثمان في مديحه. ويمكن تلخيص ذلك في النقاط التالية

1- يظهر للباحث أن الشاعر كان يسلك في شعر المديح أسلوبا واحدا ويحافظ عليه في أغلب إنتاجاته.
2- وأن من أبرز ما يتمتع به أسلوبه السهولة في التعبير والرقة في الترتيب، وجودة السبك.

3- وأنه ناجح في عملية توليد معاني المديح من مناسبات القصائد ومن الفضائل الإسلامية.
4- وكان يكثر من استعمال المصطلحات الصوفية، كما يجنح الى مدح المكان الذي يُقيم فيه الممدوح. وأنه كان محافظا بالنسبة إلى الشكل واللغة.

قائمة المراجع

الإسكندري، الشيخ أحمد، وأمين، مصطفى، ، **الوسيط في الأدب العربي وتاريخه**، (القاهرة، دار المعارف، 1916م)

أمين، أحمد، **النقد الأدبي**، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1972م)، ص 67

البغدادي، قدامة بن جعفر، **نقد الشعر، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي**، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 2006م)

الثالث، يعقوب محمد، **ظاهرة جديدة في الشعر العربي النيجيري: عرض ودراسة لشعر السيد آدم عثمان**، (رسالة الماجستير المخطوطة، قسم اللغة العربية، جامعة بَايَرُو، كَانُوْا، 1998م

الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1980م)

الرافعي، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**، (بيروت، المكتبة العصرية، 2007)

زَارِيَا، غَرْبَ طَنْ ظُوهُو، **محمد البخاري بن الشيخ عثمان بن فودي وشخصيته الأدبية**، (زَارِيَا، مطبعة غَسْكِيَا، 2004م)، ص 127

سليمان، فتح الله أحمد، **الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية**، (القاهرة، دار الآفاق العربية، 2008م)،

صالح، أحمد محمد، **فن المديح عند البحتري والمتنبي: دراسة أدبية مقارنة**، (رسالة الماجستير المخطوطة، قسم اللغة العربية، جامعة بَايَرُو، كَانُوْا، 2006م)

عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (ديوان شعر مخطوط، نسخة مصورة، مكتبة الباحث الخاصة، د.ت)

القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي**، (بيروت، المكتبة العصرية، 2004)، ص 156

محمد، عبد الصمد عبد الله، **أضواء على الشعر في غربي أفريقيا**، (القاهرة، مكتبة وهبة، 2001م)

المنصور، عثمان محمد، **المحامي آدم عثمان: شاعريته وقصائده في مناهضات ضد الإسلام**، (رسالة الماجستير المخطوطة، قسم دراسة الديانات، جامعة جُوْسْ، 2008م)

[11] سليمان، فتح الله أحمد، **الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية**، (القاهرة، دار الآفاق العربية، 2008م)، ص:38-43

[2] سليمان، فتح الله أحمد، (المرجع السابق)، ص 12

[3] الإسكندري، الشيخ أحمد، وأمين، مصطفى، ، **الوسيط في الأدب العربي وتاريخه**، (القاهرة، دار المعارف، 1916م)، ص 48

[4] الرافعي، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**، (بيروت، المكتبة العصرية، 2007)، ص 84

[5] زَارِيَا، غَرْبَ طَنْ ظُوهُو، **محمد البخاري بن الشيخ عثمان بن فودي وشخصيته الأدبية**، (زَارِيَا، مطبعة غَسْكِيَا، 2004م)، ص 127

[6] صالح، أحمد محمد، **فن المديح عند البحتري والمتنبي: دراسة أدبية مقارنة**، (رسالة الماجستير المخطوطة، قسم اللغة العربية، جامعة بَايَرُو، كَانُوْا، 2006م)، ص 13

[7] البغدادي، قدامة بن جعفر، **نقد الشعر، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي**، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 2006م) ص 89

[8] الرافعي، مصطفى صادق (المرجع السابق) ص 84-86

[9] زَارِيَا، غَرْبَ طَنْ ظُوهُو، (المرجع السابق) ص 127

[10] محمد، عبد الصمد عبد الله، **أضواء على الشعر في غربي أفريقيا**، (القاهرة، مكتبة وهبة، 2001م)، ص 51

[11] الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1980م) ص 29

[12] الثالث، يعقوب محمد، **ظاهرة جديدة في الشعر العربي النيجيري: عرض ودراسة لشعر السيد آدم عثمان**، (رسالة الماجستير المخطوطة، قسم اللغة العربية، جامعة بَايَرُو، كَانُوْا، 1998م)، ص 5

[13] المنصور، عثمان محمد، **المحامي آدم عثمان: شاعريته وقصائده في مناهضات ضد الإسلام**، (رسالة الماجستير المخطوطة، قسم دراسة الديانات، جامعة جُوْسْ، 2008م)، ص 26

[14] المنصور، عثمان محمد، (المرجع السابق) ص 29-30

[15] أمين، أحمد، **النقد الأدبي**، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1972م)، ص 67

[16] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (ديوان شعر مخطوط، نسخة مصورة، مكتبة الباحث الخاصة، د.ت)

[17] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (المرجع السابق)

[18] المرجع نفسه

[19] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (المرجع السابق)

[20] المرجع نفسه

[21] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (المرجع السابق)

[22] المرجع السابق

[23] المرجع نفسه

[24] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (المرجع السابق)

[25] المرجع السابق

[26] المرجع نفسه

[27] المرجع نفسه

[28] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (المرجع السابق)

[29] المرجع السابق

[30] المرجع نفسه

[31] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (المرجع السابق)

[32] المرجع السابق

[33] المرجع نفسه

[34] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (المرجع السابق)

[35] المرجع السابق

[36] البغدادي، قدامة بن قدامة، (المرجع السابق)، ص 96

[37] عثمان، آدم، (المرجع السابق)

[38] عثمان، آدم، **مجموعة القصائد**، (المرجع السابق)

[39] المرجع السابق

[40] المرجع نفسه

[41] القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي**، (بيروت، المكتبة العصرية، 2004)، ص 156

[42] عثمان، آدم، **مجموعة قصائد** (المرجع السابق)

[43] المرجع نفسه

[44] عثمان، آدم، **مجموعة قصائد**، (المرجع السابق)